رؤية

فلسفة
الحرب والسِّلم والحكم

إعداد

أ.د. محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

١٤٤٢هـ / ٢٠٢٠م

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. هيثم الحاج علي

الإشراف التحريرى

د. محيى عبد الحي

الإخراج الفنى

مرفت عنتر النحاس

تصميم الغلاف

نسرين كشك

المراجعة اللغوية

د. أيمن إبراهيم طاجن

المتابعة

شريف عبد العزيز

الطبعةالأولى: للهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢٠

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل – رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدى: ١١٧٩٤
تليفون : ٢٥٧٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلى ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

المشروعات الثقافية

فلسفة الحرب والسِّلم والحكم

إعداد وتقديم

د.محمد مختار جمعة

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة، بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه فى المقام الأول.

حقوق الطبع والنشر محفوظ للهيئة العامة للكتاب .يحظر إعادة النشر أو الاقتباس بأية صور إلابإذن كتابي من الهيئة العامة للكتاب، أو بالإشارة إلى المصدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا
تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾

[هود: ٨٨]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

الحمد لله الهادي إلى سُبل الرشاد، القائل في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[1]، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله الذي أرسله ربه ﷻ رحمة للعالمين فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد:

فلا شك أن قضية الحرب والسِّلم وأحكامهما وقضية الحكم ونظامه وآلياته من أهم القضايا التي تشغل بال أيِّ مجتمع، بل تشغل بال العالم كله والبشرية جمعاء؛ لما لهذه

(١) [سورة البقرة، الآية ٢٠٨].

(٢) [سورة الأنبياء، الآية ١٠٧].

القضايا من أثر بارز في حياة الأفراد والمجتمعات والدول على حد سواء، وبخاصة قضية نُظم الحكم التي تعد لازمة من لوازم العمران وشرطًا رئيسًا في إقامة الدول التي لا تبنى ولا تصير دولًا إلا بأرض وشعب وحكومة ونظام حكم، فلا استقرار لدولة بلا نظام مستقر، ولا سيما في عالم اليوم، عالم التحالفات والتكتلات، عالم الاقتصاد والاستثمار ورءوس الأموال عابرة القارات ومتعددة الجنسيات، وعلى حد قول الشاعر العربي الأفوه الأودي:

لا يَصلُحُ النـاسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم
وَلا سَـــراةَ إِذا جُهّالُهُـم سـادوا
وَالبَيـــتُ لا يُبتَنـــى إِلاّ لَهُ عُمُـدٌ
وَلا عِمـادَ إِذا لَـم تُـرسَ أَوتـادُ

فلكل صنعة أصولها، ولكل دولة قوامها ومقوماتها التي لا تبنى إلا عليها ولا تستقر إلا بها.

كما أن كثيرًا من أوجه الخلل التي تعتري المجتمعات والدول تأتي نتيجة سوء الفهم لفلسفة الحرب، أو فلسفة

السِّلم، أو فلسفة الحكم، حتى إن أكثر الجماعات الضالة والمنحرفة عن جادة الصواب والعناصر التي تجتذبها جماعات التطرف إنما تجتذبها وتجندها في الغالب الأعم من خلال الخلط بين أحكام الحرب وأحكام السِّلم، وإسقاط أحكام الحرب على أحوال السِّلم، ورمي المجتمعات بالتقصير في حق دينها، ومن ثم وصفها بالجاهلية تمهيدًا لتكفيرها، ثم الانتقال من التكفير إلى التفجير، أو تعمل على ذلك من خلال نشر الفهم الخاطئ لنظام الحكم وحصره في قضية الخلافة ومحاولة فرضها بمنظور هذه الجماعات المتطرفة على المجتمعات والدول فرضًا، والإصرار على إسقاط الواقع المعاصر في قوالب جامدة لم يضعها ولم يفرضها الإسلام، إنما صنعتها الرؤى المتطرفة لهذه الجماعات، مما يتطلب بعمقٍ ووضوحٍ تامَّين رؤية ثاقبة وتحليلًا دقيقًا يراعي متغيرات العصر ومستجداته، ويعمل على تصحيح المفاهيم الخاطئة، بإلقاء الضوء على هذه القضايا وتصويبها، وتنقيتها مما علق بها من شوائب، وبيان الوجه الصحيح لفلسفة الحرب والسِّلم والحكم، حتى لا تتخذ تلك الجماعات من فرض رؤاها ومفاهيمها

الخاطئة في ذلك ذريعة للتطرف والعنف وتدمير المجتمعات وتفكيك الدول أو تدميرها، مع ما يتبع ذلك ويصاحبه من تشويه لصورة ديننا الحنيف وتنفير الناس منه وتبغيضهم فيه، مما قد يحملهم على التربص به، وبأتباعه ومعتنقيه، ويعطي بعض الحمقى والناقمين عليه أو على أتباعه، ذريعة للنيل منه ومنا تحت غطاء محاربة الإرهاب الذي نحن وديننا منه براء، فنحن ضحايا ولسنا جلَّادين، وهو ما نحاول أن نلقي عليه الضوء في ثنايا هذا الكتاب.

والله من وراء القصد، وهو الموفق والمستعان.

أ.د. محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

المبحث الأول

فلسفــة الحــرب

الحرب ليست غاية ولا هدفًا لأي دولة رشيدة أو حكم رشيد، كما أنها ليست نزهة أو فسحة، وكان نبينا ﷺ يقول: (لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا)[1].

ويقول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى[2]:

وَمـا الحَـربُ إِلّا مــا عَلِمتُــم وَذُقتُــمُ
وَمـا هُوَ عَنهــا بِالحَــديثِ المُرَجَّــــمِ
مَتى تَبعَثـوهــا تَبعَثوهــــا ذَميمَـــةً

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، بَاب كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ أَوَّلَ النَّهَارِ أَخَّرَ الْقِتَالَ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، حديث رقم(٢٩٦٦).

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى: معلقة (أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ)، ص: ١٠٦، تحقيق: علي حسن فاعور- ط: دار الكتب العلمية: ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

وَتَضْـــرَ إِذا ضَرَّيتُمـوهـــا فتَضْـــرَمِ[1]
فَتَعــرُكُّمُ عَـركَ الرَّحَـــى بِثِفَالِهِـــــا
وَتَلقَح كِشافًــا ثُمَّ تَحمِـــل فَتُتئِـــمِ[2]
فَتُنتَـج لَكُـم غِلمـــانَ أَشـأَمَ كُلُّهُـــم
كَأَحمَـــرِ عـــادٍ ثُمَّ تُرضِـــع فَتَفطِـــمِ
فَتُغـلِل لَكُـم مـــا لا تُغِـــلُّ لِأَهلِهـــا
قُـــرىً بِالعِـــراقِ مِن قَفيـزٍ وَدِرهَمِ[3]

غيـر أن هذه الحـرب قد تكون ضـرورة للدفـاع عن النفس والعرض، والمال، والديار والأوطان، وكيان الدول ووجودها، وحمايتها من الأخطار التي تتهددها.

إن الحرب في الإسلام إنما هي حرب دفاعية شُرعت لرد الظلم والعدوان، وهي محصورة في رد الاعتداء ودفع الظلم،

(١) تَـضَرْ: الـضرّى: شـدة الحـرب واسـتعار نارهـا، وضرمـت النـار تـضرم ضرمًـا: اشـتعلت واشـتدت (شرح المعلقـات السـبع، حسـين بـن أحمـد الـزَّوْزَني) ص١٤٣، ط: دار إحيـاء الـتراث العـربي.

(٢) تلقـح: اللقـاح: حمـل الولـد، ومنـه: لقحـت الناقـة، كشـافا: الكشـاف: أن تلقـح النعجـة في السـنة مرتـين، ونتجـت الناقـة تنتـج نتاجًا. وتتئم: تلد توأمين (المصدر السابق).

(٣) والمـراد: تنتـج لكـم مـا تكرهـون مـن الدمـار والـدم لا مـا تحبـون مما تنتجه قُرى العراق الآمنة المستقرة آنذاك.

حيث يقول الحق ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]، بل إن الإسلام قد دعانا إلى الإقساط إلى جميع المسالمين وبرِّهم وإجارتهم إن استجاروا بنا، فقال ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[4]، وقال ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[5].

---

(١) [سورة الحج، الآية ٣٩].

(٢) [سورة البقرة، الآية ١٩٠].

(٣) [سورة البقرة، الآيات ١٩١ - ١٩٣].

(٤) [سورة الممتحنة، الآية ٨].

(٥) [سورة التوبة، الآية ٦].

وفي هذه النصوص ما يؤكـد أن الإسـلام لا يعرف الاعتـداء أو الظلم، إنما شرع القتال أصلًا لرد العدوان والاعتداء، فأذن الحق ﷻ للذين يقاتلـون ظلمًا بأن يهبُّوا للدفاع عن أنفسهم، على ألا يعتدوا، وألا يغدروا، وألا يسرفوا في الدماء، أو يتوسعوا فيما أذن لهم به من دفع العدوان.

وقد نهانا ديننا فقط عن ولاية من يقاتلوننا ويخرجوننا من ديارنا أو يعملون على ذلك، فقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(١).

وحتى في الحرب التي هي ردّ للاعتداء نهى الإسلام نهيًا صريحًا عن تخريب العامر، وهدم البنيان، وكان أصحاب رسول الله ﷺ حين يجهزون جيوشهم يوصون قادتها ألا يقطعوا شجرًا، وألا يحرقوا زرعًا، أو يخربوا عامرًا، أو يهدموا بنيانًا، إلا إذا تحصن العدو به واضطرهم إلى ذلك ولم يجدوا عنه بديلًا، وألا يتعرضوا للزراع في مزارعهم، ولا الرهبان في صوامعهم، وألا يقتلوا امرأة، ولا طفلًا، ولا شيخًا فانيًا ما داموا لم يشتركوا في القتال.

(١) [سورة الممتحنة، الآية ٩].

هذا، وقد ظل النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في مكة المكرمة ثلاثة عشر عامًا يتحملون أذى المشركين دون أن يؤذن لهم بالقتال ولو دفاعًا عن أنفسهم لأسباب من أهمها وفي مقدمتها: استنفاد سائر الوسائل السِّلمية في الدعوة المبنية على الحكمة والموعظة الحسنة، وتربية المؤمنين على أقصى درجات ضبط النفس وتحمل الأذى في سبيل الله، وإقامة الحجة على الخصم. ومنها: عدم التكافؤ في المواجهة آنذاك، إذ كانت المواجهة بكل حسابات البشر محسومة لصالح المشركين، مما ينذر بخسائر فادحة في صفوف المستضعفين من المسلمين حال التعجل في المواجهة، والإسلام حريص على حفظ الدماء كل الدماء، فما بالك بدماء أبنائه المؤمنين به المدافعين عنه المستعدين للتضحية بأغلى ما يملكون وكل ما يملكون في سبيله، ومنها: لفت أنظارنا إلى أهمية الإعداد الجيد - أفرادًا وتسليحًا وتخطيطًا - قبل الدخول في أي مواجهة ما لم تفرض علينا فرضًا، ولم يكن ثمة بُدّ من الخروج لمواجهة العدو على نحو ما كان من النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في مواجهة المشركين في بدر وأحد والخندق وغيرها من ملاقاة النبي ﷺ لأعدائه.

وفي التأكيد على هذا الإعداد الجيد والأخذ بأسباب القوة والمنعة، يقول الحق ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[1].

على أن الغاية هنا والمراد من هذه الآية إنما هو ردع العدُو من أن يعتدي علينا، فلو تحقق الردع دون قتال فإنها لأسمى غاية وأنبل هدف، حيث يقول الحق ﷻ في شأن يوم الأحزاب: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[2]، وفي شأن يوم الحديبية يقول ﷻ ممتنًّا على عباده المؤمنين بتجنيبهم القتل والقتال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[3]، فلما هاجر النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم إلى المدينة، وصار لهم بها دولة ووطن يدافعون عنهما، كان

(١) [سورة الأنفال، الآية ٦٠].

(٢) [سورة الأحزاب، الآية ٢٥].

(٣) [سورة الفتح، الآية ٢٤].

الإذن بالقتال الدفاعي في قوله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1].

مع ضرورة الوقوف عند الآتي:

١ - في قوله ﷻ: ﴿أُذِنَ﴾ عبَّر في الإذن بالبناء للمجهول ولم يقل ﷻ: أذن الله، ليكون العمل بالإذن على قدر الحاجة والضرورة، وألا يستخدم الإذن على إطلاقه، فيؤدي ذلك إلى الإسراف في القتال والدماء.

٢ - في قوله ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ لم يقل ﷻ: أذن للمؤمنين، أو للمسلمين، أو للمضطهدين، أو مَنْ أخرجوا من ديارهم وأموالهم، فلم يكن كل ذلك وحده مسوغًا لاستخدام هذا الإذن، وإنما هي علة واحدة أن يُقاتَلوا، وأن تكون المبادرة والمبادأة من عدوهم بالقتال، ولذا كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون يوصون قادة جيوشهم ألا يبدأوا أحدًا بقتال حتى يكون العدو هو البادئ بالبغي والعدوان، وألا يأخذوا أحدًا غدرًا أو خيانة حتى لو علموا بنيته فيهما، حيث يقول الحق ﷻ:

(١) [سورة الحج، الآية ٣٩].

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[1] أي: فإن خفت من قوم غدرًا أو خيانة فاطرح إليهم عهدهم، ورده عليهم، وتحلل منه قبل الشروع في قتالهم.

٣ - ولم يكتف النص القرآني في قضية الإذن بأن يكون العدو هو البادئ بالقتال، بل جعل قتال المسلمين لأعدائهم لأجل ردٍّ بغيهم وظلمهم وعدوانهم عنهم أو عليهم، فجعل العلة الثانية والاشتراط الثاني للإذن ظلم عدوهم لهم، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ ﴾[2]، وهنا يأتي التأييد الإلهي حتى لو كانوا قلة مستضعفين﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾، طالما أن العلة هي ردّ الظلم وحماية الدولة والوطن لا البغي ولا الطمع.

وعندما ننظر إلى سيرة النبي ﷺ في هذا الجانب نجد أن النبي ﷺ عندما علم بمقدم قريش في يوم بدر جمع ﷺ أصحابه وجعل يقول: (أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ)، فقام

(١) [سورة الأنفال، الآية ٥٨].

(٢) [سورة الحج، من الآية ٣٩].

سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه فتكلم وأحسن، ثم قام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتكلم وأحسن، ثم قام سيدنا الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنه فقال: «يا رسول الله، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللهُ فَنَحْنُ مَعَكَ، وَالله لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[1]، وَلَكِنْ نقول: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فوالّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بِرْكِ الْغِمَادِ[2] لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ، حَتَّى تَبْلُغَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ خَيْرًا، وَدَعَا لَهُ بِهِ.

وهؤلاء الصحابة الثلاثة كانوا من المهاجرين، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأي قادة الأنصار، لأن نصوص بيعة العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج المدينة، إذ كانوا قد بايعوا النبي ﷺ على أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ما دام معهم داخل المدينة،

---

(١) [سورة المائدة، الآية ٢٤].

(٢) برك الغماد: بكسر الغين المعجمة، موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن. (معجم البلدان، ياقوت الحموي (١ / ٣٩٩) ط: دار الفكر – بيروت).

ولم تكن البيعة قد تعرضت لخروجهم معه خارج المدينة، فأحب ﷺ أن يسمع رأيهم صراحة، فكلما تحدث واحد من المهاجرين قال النبي ﷺ: (أشيروا عليَّ أيها الناس)، وهو يريد أن يسمع رأي الأنصار، حتى فطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سيدنا سَعْدُ ابْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه، فقال: وَالله لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: (أَجَلْ)، قَالَ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ الله لِمَا أَرَدْتَ فَنحْن مَعَك، فوالّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ، لَعَلَّ الله يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ الله، فَسُرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ، وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ: (سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ الله تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَالله لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ)[1].

(١) انظر: سيرة ابن هشام - اسْتِيثَاقُ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ أَمْرِ الْأَنْصَارِ (١/ ٦١٥) ط: مصطفى البابي الحلبي بمصر، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٤) ط: دار الكتب العلمية - بيروت.

ولهذا الموقف وغيره من المواقف العظيمة لسيدنا سعد ابن معاذ رضي الله عنه كانت البشرى والمكافأة العظيمة من الله تعالى له عند وفاته، حيث قال ﷺ: (اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ)[1].

أما يوم بني قينقاع فيرجع إلى ما كان من يهود بني قينقاع الذين كان قد ملأ الحقد نفوسهم على رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بعد أن أعزهم الله بالنصر في بدر، فقالوا: (يا محمد، لاَ يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا أَغْمَارًا لاَ يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا)، وكشف جماعة منهم عورة امرأة مسلمة في السوق، فلما هبَّ أحد المسلمين لسترها والدفاع عنها اجتمعوا عليه وقتلوه، فكان لا بد من التجهز لقتالهم ردعًا لبغيهم وخيانتهم فجهز النبي ﷺ جيشًا لقتالهم، وانتقل سريعًا إلى ديارهم وحصونهم، وحاصرهم خمس عشرة ليلة، حتى اضطروا إلى الاستسلام والنزول على حكمه ﷺ الذي قضى بإخراجهم من ديارهم[2].

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب - بَاب مَنَاقِبِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه، حديث رقم (٣٨٠٣).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٣٣)، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، وجوامع السيرة لابن حزم (١/ ١٥٤) ط: دار المعارف- مصر، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١٤٥) ط: دار الكتاب العربي- لبنان- بيروت

وفي أُحد كانت قريش قد جاءت لتثأر لقتلاها في بدر، فخرج رسول الله ﷺ للقائهم، ولم يبدأ هو ولا أصحابه بالقتال أو طلب قريش، إنما هي التي أتت بقَضِّها وقضيضها[1] وخيلها وخيلائها باغية تريد استئصال دعوته ﷺ والثأر لقتلاها في بدر.

وفي يوم حمراء الأسد كان أبو سفيان قد عزم إثر أُحُد على العودة إلى المدينة لاستئصال شأفة المسلمين، فندب النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم إلى الخروج لملاقاتهم، وقال ﷺ: (لا يخرج معنا إلا من شهد أحدًا)، فخرج معه أصحابه وجراحهم تثغُب دمًا، وهنا خشي أبو سفيان ومن معه أن يكون رسول الله ﷺ قد جهز جيشًا جديدًا من أصحابه، ففضلوا الهرب والانصراف إلى مكة حتى لا يضيعوا ما أنجزوه في أُحد، وبقي النبي ﷺ والمسلمون معه ثلاثة أيام في حمراء الأسد لم يمسسهم سوء[2]، وفي شأن هذا اليوم

---

(١) القضّ: الحصى الكبارُ، والقضيض: الحصى الصغارُ، والمعنى: جاءوا جميعًا بكبارهم وصغارهم، ومنه الحديث (دخلت الجنةَ أُمّةٌ بقَضِّها وقَضِيضِها) (القاموس المحيط للفيروز آبادي (١/ ٨٤١)، ولسان العرب لابن منظور (٧/ ٢١٩).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/ ٢٩٨)، والبداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٩٦)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٢٢٣).

نزل قول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وفي يوم بني النضير كان يهود بني النضير هم الذين نقضوا العهد وحاولوا اغتيال النبي ﷺ[2].

وفي يوم دومة الجندل كانت قبائل المشركين بدومة الجندل تعد للإغارة على قوافل المسلمين بالمدينة ثم الإغارة عليها[3].

وفي يوم بني المصطلق كانت قبائلهم تعد للإغارة على المدينة فخرج النبي ﷺ إليهم ردًا لبغيهم وعدوانهم[4].

---

(١) [سورة آل عمران، الآيات ١٧٢-١٧٤].

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١٤٨)، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٤/ ٣١٧) ط: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٩٠) ط: دار الكتب العلمية – بيروت، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٦٩).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٨٩) ط: مصطفى البابي الحلبي بمصر، والروض الأنف للسهيلي (٧/ ١٨) ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

وفي يوم الخنـــدق اجتمعـت الأحـزاب من كل حَدَب وصوب لحصار المدينة، فكان القتال دفـاعًا عن النفس، والوطن، والديار، والأرض والعـرض، وهو ما يصـوره الحق ﷻ في ســورة الأحــزاب فيقول: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[1].

ثم يصور ﷻ حال المؤمنين الصادقين، فيقول: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) [سورة الأحزاب، الآيات ٨ - ١٣].

رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴾[1].

وفي يوم بني لحيان، كان بنو لحيان هم الذين غدروا بعشرة من الصحابة رضي الله عنهم بالرَّجيع، وتسببوا في قتلهم واستشهادهم[2].

وفي يوم ذي قَرَد أو يوم الغابة كان جماعة من أعراب نجد من بني فزارة قد أغاروا على إبل للنبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وقتلوا حارسها واحتملوا امرأته مع الإبل وفروا نحو نجد، فكان لا بد من ردعهم وتأديبهم[3].

وفي خيبر كان أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وحرضوا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين وبقبائل غطفان وأعراب

(١) [سورة الأحزاب، الآيات ٢٢-٢٥].

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٢ / ٢٤٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ١٠٥).

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٧٨)، وتاريخ الطبري (٢/ ١٠٥).

البادية لتأليبهم على المسلمين، وكانوا هم أنفسهم يستعدون للقتال، فكان لابد من مواجهتهم وكف شرهم[1].

أما يوم مؤتة فكانت ثأرًا لقتل الصحابي الجليل الحارث ابن عمير الأزدي رضي الله عنه رسول النبي ﷺ الذي بعثه بكتابه إلى عظيم بُصْرَى، فعرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني وكان عاملًا على البلقاء من أرض الشام من قِبل قيصر فأوثقه رباطًا، ثم قدمه فضرب عنقه، وكان قتل السفراء والرسل - ولا يزال - من أشنع الجرائم وأبشعها، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على النبي ﷺ، فجهز جيشًا ووجهه إليهم[2].

وفي فتح مكة كانت قريش هي التي نقضت عهدها مع سيدنا رسول الله ﷺ وساعدت حلفاءها من بني بكر على قتل خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، حيث بيتوهم وقتلوهم غدرًا عند ماء بالقُرب من مكة يُقَالُ لَهُ الْوَتِيرُ، فجاء عمرو بن سالم الخزاعي رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ بالمدينة مستغيثًا

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ١٣٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (١/ ٢٥٣).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٤٧٩).

بقوله[1]:

يَـــا رَبِّ إِنِّـــي نَـاشِـــدٌ مُحَمَّـــدًا
حِلْـــفَ أَبِينَـــا وَأَبِيـــهِ الْأَتْلَـــدَا
قَـدْ كُنْتُمْ وُلْـــدًا وَكُنَّـــا وَالِـــدَا
ثُمَّـــتَ أَسْلَمْنَـــا فَلَـــمْ نَنْزِعْ يَـــدَا
فَانْصُـــرْ هَـــدَاكَ اللهُ نَصْـــرًا أَعْتَـــدَا
وَادْعُ عِبَـــادَ اللهِ يَأْتُـــوا مَـــدَدَا
فِيهِـــمْ رَسُـــولُ اللهِ قَـــدْ تَجَـــرَّدَا
إِنْ سِيـمَ خَسْـفًـا وَجْهُـــهُ تَرَبَّـــدَا
فِي فَيْلَـــقٍ كَالْبَحْـــرِ يَجْـرِي مُـزْبِـــدًا
إِنَّ قُرَيْشًـــا أَخْلَفُـــوكَ الْمَوْعِـــدَا
وَنَقَضُـــوا مِيثَاقَـــكَ الْمُؤَكَّـــدَا
وَجَعَلُـــوا لِـــي فِـــي كَدَاءٍ رُصَّـــدَا
وَزَعَمُـــوا أَنْ لَسْـــتُ أَدْعُو أَحَـــدَا
وَهُـــمْ أَذَلُّ وَأَقَـــلُّ عَـــدَدَا
وَقَتَّلُونَـــا رُكَّعًـــا وَسُجَّـــدَا

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٩٤)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٥٢٣).

فقال ﷺ: (نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ) فَمَا بَرِحَ حتَّى مَرَّتْ سحابة فِي السَّمَاءِ فقال ﷺ: (إنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ)[1].

ومع ذلك لما دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا أعلن العفو العام عن أهل مكة، وقال قولته المشهورة: (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بكم؟) قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيم، فقَالَ ﷺ: (اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ)[2]. وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل.

ويوم حنين كانت قبائل هوازن وثقيف هي البادئة بالعداء، وأعدت العدة للانقضاض على المسلمين، وقد سار مالك بن عوف النّصري على رأس جيش حتى وصل إلى القُرب من مكة، فكان لا بد من مواجهتهم ورد بغيهم وعدوانهم[3].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام - ذِكْرُ الْأَسْبَابِ الْمُوجِبَةِ الْمُسِيرَ إلَى مَكَّةَ (٢/ ٣٩٣).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى- كِتَاب السِّيَرِ- بَاب فَتْحِ مَكَّةَ حَرَسَهَا اللهُ تَعَالَى (٩/ ١٩٩) دار الكتب العلمية - بيروت- لبنات، وانظر: سيرة ابن هشام- طَوَافُ الرّسُولِ بِالْبَيْتِ وَكَلِمَتُهُ فِيهِ (٢/ ٤١١)، والروض الأنف ٧/ ٧٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٥٧١).

وأما تبوك فكانت ردًّا لعدوان الرومان الذين كانوا يعملون على إنهاء قوة المسلمين آنذاك؛ ذلك أنهم كانوا يرونها الخطر الحقيقي على سلطانهم، فأخذوا يهددون ثغورهم، ويعدون العدة للانقضاض عليهم، فانتدب النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم للتجهز والخروج في ساعة العسرة، ولم يكن من الحكمة أن ينتظرهم المسلمون حتى يداهموهم في مدينتهم، وانتهت بفرار الروم وانسحابهم دون قتال، وحرص النبي ﷺ على حفظ الدماء فلم يتتبعهم واكتفى ﷺ بالردع الذي تحقق لهم[1].

ومن يتتبع سائر أيام نبينا ﷺ في ملاقاة أعدائه يجد أنها لا تخرج عن دائرة ردِّ البغي ودفع العدوان وردع التآمر والكيد له ﷺ ولدعوته ولأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

ولعل من أهم أخلاق الفرسان التي أصَّلها الإسلام في فلسفة القتال أنه لا قتل للمدنيين أو لغير المقاتلين، فقد كان النبي ﷺ يوصي قادة جيشه بقوله: (انْطَلِقُوا

(١) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/ ٣٤٠)، وتاريخ الطبري (٢/ ١٨١)

بِاسْمِ اللهِ وَبِاللهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلَا طِفْلًا، وَلَا صَغِيرًا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا تَغُلُّوا)[1]، وفي رواية أخرى: (وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا)[2].

وفي وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأحد قادة جنده: «وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً، وَلَا بَعِيرًا، إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا، وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ، وَلَا تَغْلُلْ، وَلَا تَجْبُنْ»[3].

وقد شدد النبي ﷺ في النهي عن قتل الأطفال أو الذرية تشديدًا كبيرًا، وبلغه ﷺ قتل بعض الأطفال فوقف يصيح في جنده: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ جَاوَزَ بِهِمُ الْقَتْلُ إِلَى الذُّرِّيَّةِ، أَلاَ لاَ تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً أَلاَ لاَ تَقْتُلُواً ذُرِّيَّةً)[4].

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الجهاد- بَاب فِي دُعَاءِ الْمُشْرِكِين، حديث رقم (٢٦١٤).

(٢) جزء من حديث رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير- بَاب تَأْمِيرِ الْإِمَامِ الْأُمَرَاءَ عَلَى الْبُعُوثِ، وَوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُمْ بِآدَابِ الْغَزْوِ وَغَيْرِهَا،حديث رقم (١٧٣١).

(٣) موطأ مالك، كتاب الجهاد - بَاب النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ فِي الْغَزْوِ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٢ / ٧٧.

(٤) رواه أحمد في مسنده (٢٤/ ٣٥٧) برقم ١٥٥٨٩.

وقد نهى ﷺ عن قتل جميع من لا يقاتل وخاصة النساء، فلما رأى امرأة مقتولة، وكان من حالها أنها لا تقوى على القتال استنكر ﷺ ذلك بشدة، وقال: (مَنْ قَتَلَ هَذِهِ؟ مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ)[1]، مما يؤكد أنه لا قتل على المعتقد قط، وأن القتل ليس مقابلًا للكفر، إنما هو مقابل لدفع القتل ورد الاعتداء، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

فالقتال في الإسلام مقصور على ردِّ الاعتداء دون تجاوز، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[3]، ويقول ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[4].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٥/ ٣٧٠) برقم ١٥٩٩٢.

(٢) [سورة الحج، الآية ٤٠].

(٣) [سورة البقرة، الآية ١٩٠].

(٤) [سورة البقرة، الآية ١٩٤].

ومما يؤكد أن الحرب في الإسلام إنما هي لرد الاعتداء ودفع العدوان دون أي تجاوز أو بغي أو إسراف في الدماء، ما شرعه الإسلام في معاملة الأسرى من حسن معاملتهم والإحسان إليهم؛ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[1].

وقد دعا نبينا ﷺ إلى الرفق بالأسرى، فقال: (اسْتَوْصُوا بِالأَسَارَى خَيْرًا)[2]، وقد أوصى أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسرى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الطعام.

وفي قصة «ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ الحنفي» ما يؤكد كيف كان نبينا ﷺ يتعامل مع أسراه، ذلك أنه عندما أسر ثمامة بن أثال ورَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، خَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ

(١) [سورة الإنسان، الآيات ٨ - ١٤].

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٩٣) برقم ٩٧٧، ط: مكتبة ابن تيمية - القاهرة.

يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَم، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ، حَتَّى كَانَ الْغَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، فَقَالَ: أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِله إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، يَا مُحَمَّدُ، وَالله مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَد أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلاَدِ إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، قَالَ قَائِلٌ: صَبَوْتَ، قَالَ: لاَ، وَلكِنْ أَسْلمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله ﷺ، وَلاَ وَالله لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ[1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي - بَابُ وَفْدِ بَنِي حَنِيفَةَ، وَحَدِيثِ ثُمَامَةَ ابْنِ أُثَالٍ، حديث رقم (٤٣٧٢).

وهذه الثقافة في معاملة الأسـرى عبر عنها الشاعر الأموي الكبير همام بن غالب التميمي المعروف بالفرزدق، فقال[1]:

وَلا نَقتُلُ الأسرَى وَلكنْ نَفُكُّهمْ
إذا أثْقَلَ الأعناقَ حَمْـلُ المَغــارِمِ

أما إذا فرض علينا القتال فإننا لا يمكن أن نعطي الدنية في ديننا ولا أن نتخاذل عن الدفاع عن أوطاننا، إنما نفتديها بأنفسنا وشعارنا في ذلك: والله إنها لإحدى الحُسنيين إما النصر وإما الشهادة، حيث يقول الحق ﷻ مخاطبًا المسلمين في يوم بدر: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2]، أي: ويقطع دابر الكافرين المعتدين عليكم المتربصين بكم الذين أخرجوكم من دياركم وأموالكم، لا ذنب لكم ولا جريرة إلا أنكم آمنتم بالله ورسوله، ويقول ﷻ: ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ

(١) ديـوان الفـرزدق، ص:٦٢٢، تحقيـق: عـلي حسـن فاعـور- ط: دار الكتـب العلميـة.

(٢) [سورة الأنفال، الآية ٧].

مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[3]، ويقول ﷻ: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[4].

---

(١) [سورة النساء، الآية ١٠٤].

(٢) [سورة آل عمران، الآية ١٤٠].

(٣) [سورة آل عمران، الآيات ١٢٣- ١٢٦].

(٤) [سورة الأنفال، الآيات ٦١- ٦٣].

وقد قلتُ حول هذه المعاني التي تؤكد أننا أهل سلام ما لم تفرض علينا الحرب، فإن فرضت علينا فنحن رجالها:

من رامهـــا سلمـــا فتلـك يـــد
أو رامهـا حربًا فنحـــن رجالهـــا
لا نعتـدي أبدًا ولا نرضى الخنـــا
إن الرجـــولة عنـــدنـا عنوانهـــا
إحـــدى اثنتين ولا معقّب بعـده
النصـرُ نصرٌ أو نُـــرى شهـداءهـا

وقد استفز أحد قادة الروم شاعرنا العربي أبا فراس الحمداني بقوله: أنتم - معشرَ العرب - أهل كلام، ولا علم لكم بالحرب، فأجابه أبو فراس في عزة وإباء شديدين وهو أسير في سجونهم وفي متناول أيديهم[1]:

أَتَزْعُـــمُ يـا ضخمَ اللّغَـــادِيـــدِ أنّنَـا
وَنحن أُسودُ الحرْبِ لا نَعرِفُ الحرْبَـا
لَـقد جَمَعَتْنَـــا الحَـرْبُ مـن قبلِ هَـذِهِ

(١) ديـــوان أبي فـــراس الحمـــداني - ص ٣١ - ط: دار الكتـــاب العـــربي - بـــيروت.

فكنـــا بها أُسْـــدًا؛ وكنتَ بها كلبـــا
بأقلامِنَـــا أُجْحِـــرْتَ أمْ بِسُيُوفِنَـــا؟
وأُسْدَ الشَّرى قُدْنا إليكَ أمِ الكُتْبـــا؟

وإننا لعلى يقين تام في أن منزلة الشهيد من أعلى المنازل عند الله ﷻ، فالشهيد مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين؛ حيث يقول الحق ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾[3]،

(١) [سورة النساء، الآيتان ٦٩-٧٠].

(٢) [سورة التوبة، الآية١١١].

(٣) [سورة البقرة، الآية١٥٤].

ويقول ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

ولا شك أن الشهادة في سبيل الله ﷻ منحة إلهية يمنحها الله ﷻ لأحب خلقه إليه بعد الأنبياء والصديقين، وقد ورد في السنة النبوية المطهرة أحاديث كثيرة عن فضل الشهادة، منها:

* عن أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ الشَّهِيدُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ)[2].

* وعن جَابِر بْن عَبْدِ الله رضي الله عنه قال: لَقِيَنِي رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ لِي: (يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟) قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله اسْتُشْهِدَ أَبِي وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا، قَالَ: (أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا

(١) [سورة آل عمران، الآيتان١٦٩-١٧٠].

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، بَاب تَمَنِّي المجاهِدِ أنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنيا، حديث رقم (٢٨١٧).

لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ؟) قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: (مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا)- مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول- فَقَالَ: (يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ) قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً، قَالَ الرَّبُّ ﷻ: (إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ)، قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

* وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ- وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ- إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ)[2].

* وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ

---

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، بَاب: وَمِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، حديث رقم(٣٠١٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب الْوَصَايَا، بَاب مَنْ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، حديث رقم(٢٨٠٣).

مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ)[1].

ونؤمن كذلك إيمانًا لا يداخله أدنى شك بأنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها، حيث يقول ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب فَضَائِلِ الجِهَادِ، بَاب في ثواب الشهيدِ، حديث رقم(١٦٦٣).

(٢) [سورة النحل، الآية٦١].

(٣) [سورة آل عمران، الآيات ١٤٥ - ١٤٨].

وأخيرًا نؤكد أن البشرية لو بذلت في سبيل السلام والبناء، والنماء والتنمية، ورعاية الضعفاء والمحتاجين والمهمشين في العالم معشار ما تنفقه على الحروب والتسليح، وتخلى الأنانيون عن نفعيتهم وأنانيتهم، لانصلح حال البشرية جمعاء، ولتغير وجه البسيطة، ولعاش العالم كله في سلام وأمان، فإن لم يكن ذلك فما لا يدرك كله لا يترك كله، ويجب على كل عاقل رشيد مؤمن بالإنسانية محب للسلام أن يكون في جانب السلام والبناء والتعمير لا جانب الاحتراب والتدمير، فكل ما يدعو إلى السلام والبناء وعمارة الكون يتوافق وصحيح الأديان، وكل ما يدعو إلى القتل والتخريب والتدمير يتناقض مع سائر الأديان السماوية، بل يتناقض مع كل الأخلاق والقيم الإنسانية والأعراف والمواثيق الدولية، مما يتطلب منا جميعًا العمل معًا على ترسيخ وتأصيل كل معاني السلام والوقوف في وجه دعاة الحرب والدمار من أجل سعادة البشرية جمعاء وتحقيق أمنها وسلامها.

***

المبحث الثاني

فلسفــة السِّلم

فبداية من الجذر اللغوي لكلمتي السلام والإسلام، نجد أن الكلمتين تشتركان في جذر لغوي واحد هو «سلم»، ووفق ما قرره العلامة اللغوي «ابن جني» في كتابه (الخصائص) في باب الاشتقاق الأكبر: أن الكلمات التي تنتمي إلى جذر لغوي واحد تشترك في جوانب واسعة من المعنى كما تشترك في أصل الجذر اللغوي[1]، وإذا كانت ألفاظ: «السِّلم، والسلام والإسلام» تنتمي إلى جذر لغوي واحد هو مادة «سلم»، فإن أهم ما يميز هذا الجذر هو معاني السِّلم والمسالمة.

فالإسلام هو دين السلام، ونبينا ﷺ هو نبي السلام، وتحية الإسلام والمسلمين في الدنيا والآخرة هي السلام، والجنة إنما هي دار السلام، حيث يقول الحق ﷻ في شأن عباده المؤمنين في الجنة: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم

(١) انظر الخصائص لابن جني، باب الاشتقاق الأكبر ٢/ ١٣٦، ط: عالم الكتب - بيروت.

بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1]، وتحية أهل الجنة في الجنة السلام، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[2]، وتحية الملائكة لهم فيها سلام، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[3]، ويقول ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾[4]، ويقول ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[5]، ويقول ﷻ: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾[6]، ويقول ﷻ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾[7].

---

(١) [سورة الأنعام، آية ١٢٧].

(٢) [سورة يونس، آية ١٠].

(٣) [سورة الرعد، الآيتان ٢٣-٢٤].

(٤) [سورة الزمر، الآيتان ٧٣-٧٤].

(٥) [سورة إبراهيم، الآية ٢٣].

(٦)[سورة الفرقان، الآية ٧٥].

(٧) [سورة الأحزاب، الآية ٤٤].

وقد سمى ربنا ﷻ نفسه باسم السلام، فقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]، ويدعونا إلى دار السلام فيقول ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، وإن ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر والتي تعد أعظم ليلة وأعظم منحة من الله للمسلمين ليلة سلام، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾[3] فقال: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، ولم يقل ﷻ: هي سلام، ليجعل من لفظ السلام عمدة وأصلًا تدور عليه حركة الكون والحياة.

وقد نهانا الحق ﷻ أن نسيء الظن بمن يلقي إلينا السلام، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ

(١) [سورة الحشر، الآية ٢٣].

(٢) [سورة يونس، الآية ٢٥].

(٣)[سورة القدر، الآيات ١:٥].

لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾(١).

فضرورة السلام للإنسان في الإسلام تنبع من أنه دين يعدل بين الناس جميعًا في الحقوق وفي الواجبات، ويؤمن بقبول الآخر والمختلف، فالله ﷻ خلق الناس مختلفين، قال ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾(٢)، ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٣) أي: لتتعارفوا وتتعاونوا وتتكاملوا، لا لتتحاربوا وتتقاتلوا ويسفك بعضكم دم بعض، حيث أكد ﷻ أن خوض الناس بعضهم في دماء بعض إنما هو نوع من العذاب الذي يسلطه عليهم إذا حل بهم غضبه، فيقول ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ

(١) [سورة النساء، الآية ٩٤].

(٢) [سورة هود، الآيتان ١١٨-١١٩].

(٣)[سورة الحجرات، الآية ١٣].

أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴾(١).

ويقول ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾(٢)، ويقول ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾(٣)، ويقول ﷺ مخاطبًا نبينا ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾(٤)، ويقول ﷺ مخاطبًا إياه ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾(٥)، ويقول ﷻ ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾(٦)، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾(٧).

---

(١) [سورة الأنعام، الآية ٦٥].

(٢) [سورة يونس، الآية ٩٩].

(٣) [سورة البقرة، الآية ٢٥٦].

(٤) [سورة الشعراء، الآية ٣].

(٥) [سورة الكهف، الآية ٦].

(٦) [سورة الشورى، الآية ٤٨].

(٧) [سورة القصص، الآية ٥٦].

بل إننا لنرى ما كان من النبي ﷺ مع سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنه عندما طَعَن رجلا برُمْحِه حَتَّى قَتَلَهُ بعد أن نطق بالشهادة، فقال النبي ﷺ: (يَا أُسَامَة، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إلهَ إلاَّ اللهُ ؟!) فقال أسامة: يَا رَسُول الله، إِنَّمَا كَانَ متعوِّذًا، فَقَالَ: (أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إلهَ إلاَّ اللهُ؟!) يقول أسامة: «فما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذلِكَ اليَوْمِ»[1].

وفي رواية أن النبي ﷺ قال: (أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَهَا أَمْ لاَ؟)[2]، وعند الطبراني: (هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى يَسْتَبِينَ لَكَ؟)[3]، مما يؤكد أن الإسلام حريص كل الحرص على حفظ الدماء، وأن الأصل في الإسلام هو عصمتها لا سفكها.

وتعد فلسفة السِّلم هي القضية الراسخة في الفكر الإسلامي، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي- بَابُ بَعْثِ النَّبِيِّ ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ إِلَى الحُرُقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، حديث رقم (٤٢٦٩)، ومسلم في الإيمان- بَابُ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْكَافِرِ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

(٢) رواه أبو داود في كتاب الجهاد - باب عَلَى مَا يُقَاتَلُ الْمُشْرِكُونَ .

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٨ / ٢٢٦ .

ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[1].

ووفق مفهومي الموافقة والمخالفة في فهم هذه الآية فإن من يسير في طريق السِّلم الإنساني متبعٌ لما أمر الله به عباده المؤمنين، ومن يسلك مسالك الفرقة والشقاق، والتكفير والتفجير، والخوض في الدماء، والولوج فيها بغير حق فسادًا أو إفسادًا، متبعٌ لخطوات الشيطان الذي هو لنا جميعًا عدوٌّ مبين.

وقد كان من منهج نبينا ﷺ أنه يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويحسن إلى من أساء إليه، أما معاملته ﷺ لغير المسلمين فترسخها وتتوجها «وثيقة المدينة» التي رسخت لأسس التعايش السِّلمي بين البشر في أسمى معانيه الإنسانية.

وتعد هذه الوثيقة من أفضل النماذج في تاريخ البشرية للعيش الإنساني السِّلمي المشترك، وإننا في هذا المناخ الثقافي والسياسي الذي يعيشه عالم اليوم، المشحون بالصراعات ومحاولات الاستقطاب، لفي أمسِّ الحاجة إلى العودة إلى

(١) [سورة البقرة، الآية ٢٠٨].

هذا التراث العظيم وهذا التطبيق الراقي لحق الإنسان في الحياة والمواطنة المتكافئة، واستلهام روح التسامح التي يفيض بها تاريخنا الحضاري الذي يؤصل للتعايش المشترك على أسس وطنية وإنسانية راقية.

فقد وضعت هذه الوثيقة أسس التعايش الذي يريده الإسلام لأبناء المجتمع الواحد على اختلاف دياناتهم ومعتقداتهم، حيث تنص على أن يهود بني عوف، ويهود بني النجار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جُشَم، ويهود بني الأوس، ويهود بني ثعلبة، مع المؤمنين أمة، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وأن من خرج منهم فهو آمن، ومن قعد بالمدينة فهو آمن، إلا من ظلم أو أثم، وأن الله ﷻ جار لمن برَّ واتقى، وكذلك محمد رسول الله ﷺ[1].

(١) سيرة ابن هشام -كِتَابُهُ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمُوَادَعَةُ يُهُودَ.

فأي إنسانية، وأي حضارة، وأي تعايش سلمي، أو تقدير لمفاهيم الإنسانية يمكن أن يرقى إلى ما كان من تسامح رسول الله ﷺ وإنصافه؟!.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: (لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ) قبل أن يقول: (لِلْمُسْلِمَيْنِ دِينُهُمْ)، ليكون في أعلى درجات الإنصاف والتسامح.

لقد علمنا ديننا إنصاف الآخر حتى في طريق المحاورة والجدل بالتي هي أحسن فقال ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2]، وقال ﷻ على لسان نبينا ﷺ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[3]، مع المعرفة الواضحة التي لا لبس فيها بمَنْ هو على هدى ومَنْ هو في ضلال مبين، وهو ما يسميه علماء البلاغة «الإنصاف»، وعليه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه يرد على أبي سفيان بن

(١) [سورة النحل، الآية١٢٥].

(٢) [سورة العنكبوت، الآية ٤٦].

(٣) [سورة سبأ، الآية ٢٤].

الحارث، وكان قبل إسلامه قد هجا نبينا ﷺ، فأجابه سيدنا حسان[1]:

هجوتَ محمـــــدًا، فأجبـتُ عنــهُ
وعنـــدَ الله في ذاكَ الجـــــــزاءُ
أتَهْجُــوهُ، وَلَسْــتَ لَهُ بكُـــفْءٍ
فَشَرُّكُما لِخَيــرِكُمَـــا الفِـــداءُ
فَـــإنّ أبـي وَوَالِــدَهُ وَعِرْضـــي
لعــرضِ محمــدٍ منكمْ وقـــــاءُ

ولم يقف الأمر عند «وثيقة المدينة» وحدها، فقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على صون حقوق الإنسان واحتـرام إنســانيته وآدميته واختياره، ولهذا جاء في إحدى رسائله إلى أهل نجران: (وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا جِوَارُ الله وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَمِلَّتِهِمْ، وَأَرْضِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ، وَعَشِيرَتِهِمْ وَبِيَعِهِمْ، وَأَنْ لَا يُغَيَّرُوا مِمَّا كَانُوا عليه وَلَا يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلَا مِلَّتِهِمْ،

(١) ديوان حسان بن ثابت، ص ٢٠ – دار الكتب العلمية – بيروت.

وَلَا يُغَيَّرَ أَسْقُفٌ مِنْ أَسْقُفِيَّتِهِ، وَلَا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وكل ما تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ)[1].

وعندما جاءه ﷺ وفد نجران وحان وقت صلاتهم سمح لهم النبي ﷺ بإقامة صلاتهم في مسجده المبارك ﷺ، فَأَرَادَ النَّاسُ مَنْعَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (دَعُوهُمْ)، فَاسْتَقْبَلُوا الْمَشْرِقَ، فَصَلَّوْا صَلَاتَهُمْ[2].

وعندما جاءه ﷺ وفد نصارى الحبشة استقبلهم النبي ﷺ، وأكرمهم بنفسه، وقال: (إِنَّهُمْ كَانوا لأَصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ، فإني أحبُّ أنْ أكافِئَهُمْ)[3].

وعلى هذا النهج النبوي سار الخلفاء الراشدون، فقد اقتدى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالنبي ﷺ عندما ضمن لأهل إيلياء (القدس) من المسيحيين أمنهم، وأعطاهم أمانًا

---

(١) انظر: تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٥٨٤)، ودلائل النبوة للبيهقي(٥/ ٣٨٩)، والطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٨٨).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٧٣)، والطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٣٥٧)، وزاد المعاد لابن القيم (٣/ ٦٢٩).

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة - بَاب الْهِجْرَةِ الْأُولَى إِلَى الْحَبَشَةِ، ثُمَّ الثَّانِيَةِ وَمَا ظَهَرَ فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ وَتَصْدِيقِ النَّجَاشِيِّ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْقُسُسِ وَالرُّهْبَانِ رَسُولَ الله ﷺ.

لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وسائر ملتها، وأنه لا تُسكن كنائسهم، ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها شيء، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ومن أحب أن يبقى على دينه فعلى المسلمين أن يبلغوه مأمنه دون غدر أو خيانة.

وتُعَـد هذه العهدة العمرية التي أبرمها الخليفـة العادل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهل إيلياء صفحة بيضاء ناصعة في التسامح الديني، وصفحة مضيئة في تاريخ الحضارة الإنسانية على العموم.

وفي هذا كله ما يؤكد عظمة الإسلام في تعامله مع غير المسلمين وإنصافهم، وعدم إكراههم على الدخول في الإسلام، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[1]، ويقول عز وجل على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[2]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾[3].

---

(١) [سورة البقرة، الآية ٢٥٦].

(٢) [سورة الشورى، الآية ١٥].

(٣) [سورة المائدة، الآية ٤٢].

وهذا شاعر العربية الكبير أحمد شوقي يقول في تأصيل مبـدأ التسامح وترسيخ أسس التعايش السِّلمي[1]:

أَعَهِدْتَنَـــا والقِبْـــطَ إلاَّ أُمّـــــةً
في الأَرض واحـدة نعيـــش سلامًـــا
نعـلي تعاليـــمَ المسيـحِ لأجلهـــــم
ويوقِّـــرون لأجلنـــا الإسلامـــــا
الدِّيـــنُ للدَّيّـــانِ جـــلَّ جلالُـــه
لـو شـــاءَ ربُّـــكَ وَحَّـــدَ الأَقواما
هـذي ربوعكـمُ، وتلـك ربوعنـــا
مُتقابليـــــن نعالـــج الأَيامـــــا
هـــذي بيوتكـــم، وتلـك بيوتنـــا
متعانقيـــــن مـــودة ووئامًـــــا[2]
هـــذي قبوركـمُ، وتلـك قبورنـــا
مُتجاوريـــنَ جَمـــاجمًـــا وعِظامـــا

(١) ديوان أحمد شوقي، ص ٥١٢ مع إعادة صياغة بعض الجمل.

(٢) هذا البيت من إضافتنا.

فبحُرمـة المَوْتَـى، وواجـبِ حقِّهـم
عيشـوا كـما يقـضي الجـوارُ كرامـا

وعـلى الجانـب الآخـر مـن التسـامح والتسـامي المسـيحي يقـول الشـاعر المسـيحي اللبنـاني «محبـوب الخـوري»[1] مـن مهجـره بالمكسـيك:

قالـوا: تُحِـبُّ العُـرْبَ؟ قلـتُ: أُحبُّهم
يقـضي الجـوارُ عَلَـيَّ والأرحـامُ
قالـوا: لقـد بَخلـوا عليـك؟ أجبتُهـم
أهلـي وإن ضنُّـوا عـليَّ كـرامُ
قالـوا: الديانـةُ؟! قلـتُ: جيلٌ زائـلٌ
وتـزولُ معـه حَـزازةٌ وخِصـامُ
ومحمـدٌ بطـلُ البريـةِ كلِّهـا
هو للأعـاربِ أجمعيـنَ إِمـامُ

(١) هـو الشـاعر اللبنـاني الأصـل محبـوب الخـوري، ويقـالله: الشرتـوني، نسـبة إلى قريـة شرتـون مسـقط رأسـه بلبنـان .

وكان مكرم عبيد باشا يقول: نحن مسلمون وطنًا ونص ارى دينًا، اللهم يا رب المسلمين والنصارى اجعلنا نحن المسلمين لك وللوطن أنصارًا، واجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين، وهذا هو التسامح الذي ننشده ونسعى أن يصير ثقافة سائدة وواقعًا معاشًا بيننا جميعًا.

إن السلام الحقيقي يقتضي أن يكون الإنسان في سلام مع نفسه، مع أصدقائه، مع جيرانه، مع النبات والحيوان والجماد، ألم يقل النبي ﷺ: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) [1]، وفي رواية عَبْد الله بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ ؟ قَالَ: (مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)[2]، وقال ﷺ: (وَالله لَا يُؤْمِنُ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) [3]، وزاد الإمام

(١) رواه الترمذي في كتاب الإيمان - باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

(٢) رواه مسلم في كِتَاب الإِيمَان - بَاب بَيَانِ تَفَاضُلِ الإِسْلاَمِ، وَأَيُّ أُمُورِهِ أَفْضَلُ.

(٣) رواه البخاري في كِتَاب الأَدَبِ - باب إِثْمِ مَنْ لا يَأْمَنُ جارُهُ بوائِقَهُ.

أحمد: قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا بَوَائِقُهُ ؟ قَالَ: (شَرُّهُ)[1]، ولما سئل ﷺ عن امرأة صوَّامة قوَّامة إلا أنها تؤذي جيرانها، فقيل له: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ فُلاَنَةً تَقُومُ اللَّيْلَ، وَتَصُومُ النَّهَارَ، وَتَفْعَلُ، وَتَصَّدَّقُ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ فَقَالَ ﷺ: (لاَ خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ)[2].

فقد كان ﷺ بحق رحمة للعالمين، يؤصل للسلام الكوني، دخل ﷺ بُسْتَانًا لِرَجُلٍ من الْأَنْصَارِ فَإِذَا فِيهِ جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى الجملُ النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ [3] فَسَكَتَ، فَقَالَ: (مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟)، فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ ﷺ: (أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ)[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده : ٤٥/ ١٣٩.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد - بَاب لاَ يُؤْذِي جَارَهُ.

(٣) الذِّفْرَى من الحيوان والإنسان : العظم الشاخص خلف الأذن، وهي مُؤنثة، وألفُها لِلتَّأْنِيثِ أَوْ لِلْإِلْحَاقِ . انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/ ١٦١، والصحاح للجوهري، والمعجم الوسيط، مادة : ذفر .

(٤) رواه أبو داود في سُننه - كتاب الجهاد - باب مَا يُؤْمَرُ بِهِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الدَّوَابِّ وَالْبَهَائِمِ.

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قَالَ: كنَّا مَعَ رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، فانْطَلَقَ لحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً[1] مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءتِ الحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَعْرِشُ (ترفرف بأجنحتها) فَجَاءَ النَّبيُّ ﷺ فَقَالَ: (مَنْ فَجَعَ هذِهِ بِوَلَدِهَا ؟، رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْها)[2].

ألم يخبرنا النبي ﷺ أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: (عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)[3].

وفي المقابل فإن الله عز وجل أدخل رجلًا الجنة بسبب رحمته بكلب وجده يلهث من العطش فروى كبده، فعَنْ أَبِي

---

(١) الحمرة: بِضَمِّ الحَاءِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ المفتوحة، وَقَدْ تَخُفَّفُ: طَائِرٌ صغير كالعصفور (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٤٣٩) ط: المكتبة العلمية - بيروت.

(٢) رواه أبو داود في سُننه - كتاب الجهاد - باب في كَرَاهِيَةِ حَرْقِ الْعَدُوِّ بِالنَّارِ.

(٣) رواه البخاري في كتاب الأنبياء- بَاب حَدِيثِ الغَارِ، ومسلم في كتاب السَّلَامِ - بَاب تَحْرِيمِ قَتْلِ الْهِرَّةِ.

هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (أَنَّ رَجُلًا رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ، فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَرْوَاهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ)[1] .

هذا هو السلام في الإسلام، سلام مع النفس، سلام مع الآخر، سلام مع المجتمع، سلام مع الحيوان، سلام مع الجماد، سلام مع الكون كله، وهو ما يجعلنا نؤكد وباطمئنان أن ديننا هو دين السلام، وأن فلسفة السلام هي الفلسفة الأصيلة الراسخة في الإسلام.

***

(١) رواه البخاري في كتاب الوضوءِ - بَاب المَاءِ الَّذِي يُغْسَلُ بِهِ شَعَرُ الإِنْسَانِ.

المبحث الثالث

فلسفــة الحكــم

فلسفة الحكم في الإسلام قائمة على مراعاة مصالح الناس، فحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله ﷻ، فكل ما يحقق الأمن والأمان والاستقرار، ويعمل على عمارة الكون وسعادة البشر يتفق ومقاصد الأديان، وكل ما يؤدي إلى الظلم أو الفساد أو التخلف لا علاقة له بالأديان، بل إنه متناقض كل التناقض مع صحيح الأديان ومقاصدها السامية، على أن الإسلام لم يضع قالبا جامدًا صامتًا محددًا لنظام الحكم لا يمكن الخروج عنـه، وإنمـا وضع أسسًـا ومعـاييرَ متى تحققت كان الحكم رشيدًا يقـرّه الإسلام، ومتى اختلّت أصـاب الحكم من الخلل والاضطراب بمقـدار اختلالهـا.

ولعل العنوان الأهم الأبرز لنظام أي حكم رشيد هو مدى تحقيقه لمصالح البلاد والعباد، وعلى أقل تقدير مدى عمله لذلك وسعيه إليه، فأي حكم يسعى إلى تحقيق

مصالح البلاد والعباد في ضوء معاني العدل والمساواة والحـرية المنضبطـة، بعيدًا عن الفـوضى والمحسوبيـة وتقديـم الولاء على الكفاءة فهو حكم رشيد معتبر.

وتحت هذا العنوان الرئيس تتداعى تفاصيل كثيرة تهدف في مجملهـا إلى تحقيق العدل بكل ألوانه السياسية والاجتماعية والقضائية بين البشر جميعًا، وعدم التمييز بين الناس على أساس اللون أو الجنس أو العرق، فلا إكراه في الدين، ولا حمل لأحد على الدخول فيه عنوة.

فكل حكم يعمل على تحقيق ذلك ويسعى إلى توفير الحاجات الأساسية للمجتمع من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وبُنًى تحتية من: صحة، وتعليم، وطرق، ونحو ذلك مما لا تقوم حياة البلاد والعباد إلا به، فإنه يُعدُّ حكمًا رشيدًا سديدًا موفقًا، مرضيا عند الله وعند الناس إلا من حاقد، أو حاسد، أو مكابر، أو معاند، أو خائن، أو عميل .

ويؤكد أهل العلم والرأي والفكر أن الله ﷻ ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة، وأن الدول قد تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام ؛ لأنه لو كان هناك إسلام حقيقي لما كان هناك ظلم ولا جور.

أما من يتخذون من قضية الخلافة وسيلة للمتاجرة بالدين واللعب بعواطف العامة محتجين ببعض النصوص التي يسقطونها إسقاطًا خاطئًا دون أي دراية بفقه الواقع أو تحقيق المناط من جهة، ويجعلونها أصل الأصول الذي عليه مناط الإيمان والكفر من جهة أخرى، فإننا نرد عليهم بما أكد عليه فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب شيخ الأزهر في كلمته التي ألقاها في مؤتمر «الأزهر في مواجهة الإرهاب والتطرف» من أنه لا نزاع بين أهل العلم المعتبرين في أن الخلافة أليق بالفروع وأقرب لها، ومذهب الأشاعرة على أنها فرع لا أصل، وذكر فضيلته ما ورد في كتاب «شرح المواقف» الذي يُعد أحد أعمدة كتب المذهب الأشعري، حيث ذكر مؤلفه في شأن الإمامة أنها «ليست من أصول الديانات والعقائد عندنا بل هي فرع من الفروع»، ثم علق فضيلة الإمام قائلًا: فكيف صارت هذه المسألة التي ليست من أصول الدين عند أهل السنة والجماعة فاصلًا عند هذا الشباب بين الكفر والإيمان، وفتنة سُفِكَت فيها الدماء، وخُرّب العمران، وشُوّهت بها صورة هذا الدين الحنيف؟!

وعندما تحدث النبي ﷺ في حديثه الجامع عن الإيمان والإسلام والإحسان لم يجعل ﷺ الخلافة ركنًا من أركان الإيمان أو الإسلام، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهوَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ، قَالَ: (أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ، قَالَ: (أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ، قَالَ: (مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ)، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: (أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)،

قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: (يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟) قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)[1].

أما جملة الأحاديث التي تتحدث عن الخلافة والبيعة فيمكن أن تُحمل في جملتها في ضوء معطيات عصرنا الحاضر على ضرورة إقامة نظام حكم عادل رشيد له رئيس ومؤسسات، يعمل على تحقيق العدل بين الناس، وتحقيق مصالح البلاد والعباد، ويستند إلى الشورى والإفادة من الكفاءات وأهل الخبرة والاختصاص، بحيث لا يترك الناس فوضى لا سراة لهم، ولا إشكال بعد ذلك في الأسماء والمسميات طالما أنها تحقق الأهداف والغايات التي يسعى الإسلام لتحقيقها بين الناس جميعًا بما يحقق صالح دينهم ودنياهم.

ومن ثم فإن قيام بعض المجتمعات بسنِّ قوانين لتنظيم أمور حياتها بما يحقق العدل والمساواة، ويعمل على القضاء على الجرائم بشتى أنواعها، ويؤدي إلى عمارة الكون،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان - بَاب معرفة الإِيمَانِ، وَالإِسْلاَمِ، والقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ.

وتحقيق الأمن والاستقرار والتقدم والرخاء لهو مقصد مهم من مقاصد التشريع في بناء الدول واستقرارها، ومما لا غنى عنه فيما لم يرد فيه نص قاطع حاسم قطعي الثبوت والدلالة بإجماع أهل العلم والفقهاء المعتبرين؛ ذلك أن دراسة المستجدات والقضايا العصرية مما يحتاج إلى اجتهاد فقهي وتشريعي بما يناسب الزمان والمكان.

وبما أن الله ﷻ لم يخص بالعلم ولا الفقه قومًا دون قوم أو جيلًا دون جيل، ولم يقصر الاجتهاد الفقهي ولا العلمي على عصر دون غيره، بل إن العلماء المتخصصين لا يرون آفة أشد خطرًا من الجمود والانغلاق، ومحاولة فرض بعض الفتاوى التي ناسبت عصرًا أو مكانًا أو حالًا معينًا على كل العصور والأمكنة أو الأحوال دون مراعاة لتغير كل ذلك أو بعضه، مؤكدين أن الفتوى قد تتغير بل قد يتحتم أن تتغير بتغير الزمان أو المكان أو الحال، مما يتطلب تعاونًا وثيقًا بين المؤسسات الدينية والبرلمانية والتنفيذية لاقتحام عباب الواقع في شجاعة وموضوعية تامين دون مساس بثوابت الشرع الحنيف.

وهنا نؤكد على عدة أمور، أهمها:

١- أنه لا تعارض بين النقل والعقل، ونعني بذلك أنه لا تعارض بين النص الثابت الصريح والعقل المفكر الرشيد، فالإسلام دين الفطرة، وحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله ما لم يحل ذلك حرامًا أو يحرم حلالًا، ويكفي أن نشير إلى تلك الآيات الداعية إلى التأمل والتفكر والتدبر والنظر واستخدام العقل، كقوله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[١]، وقوله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢]، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[٣]، وقوله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٤] وقوله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ

(١)[سورة العنكبوت، الآية ٤٣].

(٢)[سورة يوسف، الآية ١١١].

(٣)[سورة الأنعام، الآية ١١].

(٤)[سورة يوسف، الآية ١٠٩].

ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[2].

ولما نزل قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[3]، قال نبينا ﷺ: (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها)[4].

كما أنه لا تعارض بين الإسلام والعلم، بل على العكس من ذلك فإن الإسلام دين العلم، وأمته أمة "اقرأ"، ويكفي أن نشير إلى أن أول ما نزل من القرآن الكريم قوله ﷻ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣

(١)[سورة الحج، الآية ٤٦].

(٢)[سورة فاطر، الآيتان :٢٧-٢٨].

(٣)[سورة آل عمران، الآية ١٩٠].

(٤)رواه ابن حبان في صحيحه – كتاب الرقائق، باب التوبة ٢/ ٣٨٦.

ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

فالإسلام يدعونا إلى الأخذ بأقصى أسباب العلم، ويحثنا عليه ويأمرنا به، وينهانا عن التخبط في ظلمات الجهل والتخلف، وقد جعل نبينا ﷺ فداء أسرى بدر الذين يجيدون القراءة والكتابة أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة، في إشارة واضحة إلى الاهتمام البالغ بالعلم وإعلاء شأنه وقيمته.

٢- أنه لا تعارض بين الدين والدولة، فالدولة الرشيدة هي صمام أمان للتدين الرشيد، والعلاقة بين الدين والدولة ليست علاقة عداء ولن تكون، إن تدينًا رشيدًا صحيحًا واعيًا وسطيًّا يسهم وبقوة في بناء واستقرار دولة عصرية ديمقراطية حديثة تقوم على أسس وطنية راسخة وكاملة، وإن دولة رشيدة لا يمكن

(١) [سورة العلق، الآيات ١-٥].

(٢)[سورة الزمر، الآية ٩].

(٣)[سورة الأنبياء، الآية ٧].

أن تصطـدم بالفطـرة الإنسـانية التي تبحث عن الإيمان الرشيد الصحيح.

على أننا ينبغي أن نفرّق وبوضوح شـديد بين التـدين والتطـرف، فالتدين الرشيد يدفع صاحبه إلى التسامح، إلى الرحمة، إلى الصدق، إلى مكارم الأخلاق، إلى التعايش السِّلمي مع الذات والآخر، وهو ما ندعمه جميعًا، أما التطـرف والإرهاب الذي يدعو إلى الفساد والإفسـاد، والتخريب والدمار، والهدم واستباحة الدماء والأموال، فهو الـداء العضال الذي يجب أن نقاومه جميعًا، وأن نقف له بالمرصاد، وأن نعمل بكل ما أوتينا من قوة للقضاء عليه حتى نجتثه من جذوره.

وفي هذه المعادلة غير الصعبة يجب أن نفرق بين الدين الذي هو حق، والفكر الإرهابي المنحرف الذي هو باطل، موقنين أن الصـراع بين الحق والباطل قائم ومستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، على أن النصر للحق طال الزمن أو قصر، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[1].

(١) [سورة الأنبياء، آية ١٨].

إن مثل الحق والباطل كمثل الكلمة الطيبة التي هي حق، والكلمة الخبيثة التي هي باطل يقول ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾(١).

على أن النصر لا محالة للحق وأهله، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾(٢)، ويقول ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(٣)، ويقول ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

إننا لأصحاب قضية عادلة، قضية دين، وقضية وطن، فكل ما يدعو للبناء والتعمير، والعمل والإنتاج،

---

(١) [سورة إبراهيم، الآيات ٢٤- ٢٦].

(٢)[سورة الصافات، الآيات ١٧١-١٧٣].

(٣) [سورة محمد، الآية٧].

(٤) [سورة الروم، الآية ٤٧].

وإسعاد الناس وتحقيق أمنهم واستقرارهم، لهو الدين الحقوالإنسانية الحقيقية، وكل ما يدعو للفساد والإفساد، والتخريب والقتل، يدعو إلى ما يخالف الأديان وسائر القيـم النبيلة والفطرة الإنسانية القويمة.

الديـن والدولة لا يتنـاقضـان، الـدين والـدولة يرسخان معًا أسس المواطنة المتكافئة في الحقوق والواجبات، وأن نعمل معًا لخير بلدنا وخير الناس أجمعين، أن نحب الخير لغيرنا كما نحبه لأنفسنـا، فالأديان رحمـة، الأديان سماحة، الأديان إنسانية، الأديان عطاء.

الدين والدولة يتطلبان منا جميعًا التكافل المجتمعي، وأن لا يكون بيننا جائع ولا محروم ولا عارٍ ولا مشرد ولا محتاج.

الـدين والدولة يدفعـان إلى العمـل والإنتـاج، والتمـيز والإتقـان، ويطاردان البطالة والكسل، والإرهاب والإهمـال، والفساد والإفسـاد، والتدمير والتخريب، وإثارة القلاقل والفتن، والعمالة والخيانة.

ونؤكد أن من يتوهمون صراعًا لا يجب أن يكون بين الدين والدولة ويرونه صراعًا محتّمًا إما أنهم لا يفهمون

الأديان فهمًا صحيحًا أو لا يعون مفهوم الدولة وعيًا تامًا، فالخلل لا علاقة له بالدين الصحيح ولا بالدولة الرشيدة، إنما ينشأ الخلل من سوء الفهم لطبيعة الدين أو لطبيعة الدولة أو لطبيعتهما معًا.

غير أننا نؤكد على ضرورة احترام دستور الدولة وقوانينها، وإعلاء دولة القانون، وألا تنشأ في الدول سلطات موازية لسلطة الدولة أيًّا كان مصدر هذه السلطات، فهو لواء واحد تنضوي تحته وفي ظله كل الألوية الأخرى، أما أن تحمل كل مؤسسة أو جماعة أو جهة لواءً موازيًا للواء الدولة فهذا خطر داهم لا يستقيم معه لا أمر الدين ولا أمر الدولة[1].

٣- أن أهم ما يميز الحكم الرشيد في الإسلام هو العدل، العدل في الرضا والغضب، مع الصديق والعدو، حيث يقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ

(١) كتابنا: الدين والدولة، ص٧-٩ وهو نص مقال نشرناه بصحيفة الأهرام المصرية بتاريخ: ١٧ فبراير ٢٠١٧م.

يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، ويقول الحق ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[3]، ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[4]، ويقول نبينا ﷺ: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله تَعَالَى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابّا فِيَ الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ

(١)[سورة النحل، الآية ٩٠].

(٢) [سورة النساء، الآية ٥٨].

(٣) [سورة النساء، الآية ١٣٥].

(٤) [سورة المائدة، الآية ٨].

وتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَال: إِنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُه مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا ففاضت عَيْنَاهُ)[1]، ويقول ﷺ: (إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى الله وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ عَادِلٌ، وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَشَدَّهُمْ عَذَابًا إِمَامٌ جَائِرٌ)[2]، ويقول ﷺ: (ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الإِمَامُ الْعَادِلُ وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُوم يَرْفَعُهَا فَوْقَ الْغَمَامِ وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ)[3]، ويقول ﷺ: (مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى الله مَغْلُولًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ فَكَّهُ بِرُّهُ أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ، أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ وَأَوْسَطُهَا نَدَامَةٌ وَآخِرُهَا خِزْيٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[4]، ويقول ﷺ: (إِنَّ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأَذَانِ، باب مَنْ جَلَسَ فِي المَسْجِدِ يَنْتَظِرُ الصَّلاَةَ وَفَضْلِ المَسَاجِدِ، ومسلم في كتاب الزكاة، باب فَضْلِ إِخْفَاءِ الصَّدَقَةِ.

(٢)رواه أحمد في مسنده برقم ١١٥٢٥ .

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب الصِّيَامِ، باب فِي الصَّائِمِ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُ.

(٤) مسند أحمد برقم ٢٢٣٠٠ .

الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ الله عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا)[1].

وهو ما أكده سيدنا أبو بكر رضي الله عنه في أول خطبة له عند توليه الخلافة حين قال: أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم[2] ولم يكتف بذلك قولًا، إنما حققه قولاً وعملاً.

وهو ما أكده وانتهجه أيضًا سيدنا عمر رضي الله عنه عند توليه الخلافة فكرر المعاني نفسها في أول خطبة له، وها هي رسالته التي أرسلها إلى سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإِمَارَةِ، باب فَضِيلَةِ الأِمَامِ العَادِلِ، وَعُقُوبَةِ الْجَائِرِ، وَالْحَثِّ عَلَى الرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَالنَّهْيِ عَنْ إِدْخَالِ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٢ .

يقول فيها: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ، آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَجْلِسِكَ، وَوَجْهِكَ، وَعَدْلِكَ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَخَافَ ضَعِيفٌ جَوْرَكَ، الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ، الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا، لَا يَمْنَعُكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ بِالْأَمْسِ رَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ، وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تُرَاجِعَ الْحَقَّ، فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ، وَإِنَّ الْحَقَّ لَا يُبْطِلُهُ شَيْءٌ، وَمُرَاجَعَةَ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ، الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا يُخْتَلَجُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَاعْمَدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللهِ، وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ فِيمَا تَرَى، وَاجْعَلْ لِلْمُدَّعِي أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَةً وَإِلَّا وَجَّهْتَ عَلَيْهِ الْقَضَاءَ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْلَى لِلْعَمَى، وَأَبْلَغُ فِي الْعُذْرِ، الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَيْنَهُمْ، بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ، أَوْ مُجَرَّبًا فِي شَهَادَةِ زُورٍ، أَوْ ظَنِينًا فِي وَلَاءٍ أَوْ قَرَابَةٍ، فَإِنَّ اللهَ تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، ثُمَّ إِيَّاكَ وَالضَّجَرَ، وَالْقَلَقَ، وَالتَّأَذِّيَ بِالنَّاسِ، وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُومِ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ الَّتِي يُوجَبُ بِهَا الْأَجْرُ وَيَحْسُنُ بِهَا الذِّكْرُ، فَإِنَّهُ مَنْ يُخْلِصْ نِيَّتَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ

الله يَكْفِهِ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ، شَانَهُ اللهُ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ عَبْدِهِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ وَعَاجِلِ رِزْقِهِ، وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ الله»[1].

وهو ما يصوره حافظ إبراهيم في قصيدته الرائعة المسماة بالعمرية، حيث يقول[2]:

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا
بين الرعـــــية عطلا وهو راعيهـــا
وعهـــــــده بملوك الفرس أن لهـــا
سـورا من الجند و الأحراس يحميها
رآه مستغرقـــــــا في نومـــه فرأى
فيـــــــه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا
بـــبردة كاد طول العـــــهد يبليهـــا

(١) سُـنن الدارقطنـي (٥/ ٣٦٩)، وتاريـخ المدينـة لابـن شـبة (٢/ ٧٧٦).

(٢)ديوان حافظ إبراهيم ١/ ٨٣-٨٥.

فهـــان في عينـــه ما كـان يكبـــره
مـــن الأكـاسر والـــــدنيا بأيديها
وقـال قولـــة حق أصبحت مثـــلا
وأصبـــح الجيـــل بعد الجيل يرويهـا
أمنـــت لما أقمـــت العـدل بينهـم
فـنـمت نـــوم قرير العيـن هانيهـــا
إن جـــاع في شـــدة قومٌ شركتهـم
في الجـــوع أو تنجلي عنهم غواشيها
جـــوع الخليفـــة و الدنيـا بقبضتـه
في الزهـــد منزلـــة سبحان موليهـــا
فمـــن يباري أبـا حفص وســيرتـه
أو مـن يحـــاول للفـاروق تشبيهـا

وكتب أحد الولاة إلى سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن اللصوص كثروا بالمدينة فكتب إليه: أن حَصِّنها بالعدل[1]، وقد قال أحد العلماء البلغاء في شأن العدل: (إنّ العدل ميزان الله الّذي وضعه للخلق، ونصبه للحقّ، فلا تخالفه

(١)حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/ ٣٠٥ ط: دار الكتاب العربي – بيروت.

في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه، واستعن على العدل بخلّتين: قلّة الطّمع، وكثرة الورع)[1].

وكان ابن حزم رحمه الله يقول: (أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبّه، وعلى الحقّ وإيثاره)[2].

٤- أن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية وترسيخ دعائمها مطلب شرعي ووطني، وأن كل من يعمل على تقويض بنيان الدولة أو تعطيل مسيرتها، أو تدمير بناها التحتية، أو ترويع الآمنين بها، إنما هو مجرم في حق دينه ووطنه معًا.

٥- أن السلطة قد صارت في منظور الجماعات المتطرفة وأيديولوجياتها غاية لا وسيلة، ويتمحور فكر هذه الجماعات حول معنى واحد ربما لا ثاني له، إما أن تحكم، وإما أن تخرب لتسقط أنظمة الحكم، وفي سبيل ذلك كل شيء لديها مباح ومستباح، فكل ما يمكن أن يسهم في تحقيق غاياتهم السلطوية هو في أيديولوجياتهم سبيل من

---

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ (٧/ ٢٧٩٣) دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة.

(٢)المصدر السابق (٧/ ٢٨١٦) .

سُبل التمكين التي يجب الأخذ بها، حتى لو كان ذلك سيؤدي إلى سفك الدماء، أو ترويع الآمنين، أو إسقاط الدول، أو تفكيكها، أو تفتيتها، أو تدميرها، أو تعريض وجودها من أساسه للخطر والمخاطر، لذا لا يتوقع من عناصر هذه الجماعات أي خير لأوطانهم، بل إنهم وبال وشر أينما حلوا أو حتى ارتحلوا، لأن الشر يرحل معهم ويرتحل بارتحالهم، وهم على الجملة لا يؤمنون إلا بأنفسهم، لا يؤمنون بوطن ولا بدولة وطنية، فهم على استعداد للتحالف مع العدو أيًّا كان، مع الصهيونية العالمية، بل مع الشيطان نفسه، ومع كل من يوهمهم بمساعدتهم على الوصول إلى السلطة وتحقيق ما يتمنونه من ورائها، وهم لا يعدون ذلك عمالة ولا خيانة، إنما يعدونه تحالفات وقتية أو استراتيجية طبيعية طالما أنها تصل بهم إلى مرادهم في تحقيق السلطة التي لا يَعُونَ أي شيء عن مقوماتها أو متطلباتها سوى أنها ستحقق لهم ما يطمحون إليه من أمر دنياهم مغطى بما يوهمون به العامة والدهماء من أنهم إنما يعملون لأمر دينهم، والأديان براء من كل ذلك، وأبعد ما تكون عن هذه العمالات والخيانات وهذا التفكير الشاذ المنحرف.

وفي سبيل الوصول إلى مآربهم يتذرعون بذرائع منها أن بعض الحكام لا يحكمون بشرع الله، على أنك عندما تناقش عناصر هذه الجماعات عن مفهوم شرع الله تجدهم خاويّ الوفاض، وقد بينا ذلك واضحًا جليًا في كتابيّ: «مفاهيم يجب أن تصحح»، و«ضلالات الإرهابيين وتفنيدها»، وأكدنا أن الالتزام بما أنزل الله ﷻ من شرع لا يمنع احتكام البشر إلى قوانين يضعونها في إطار مبادئ التشريع العامة وقواعده الكلية، وفقًا لتغير الزمان والمكان، ولا يكون الاحتكام لتلك التشريعات الوضعية مخالفًا لشرع الله ما دام أنه يحقق المصالح العامة للدول والشعوب والأفراد والمجتمعات ولا يحل حرامًا أو يحرم حلالًا أو يتناقض مع ثوابت الشرع أو ينال منها.

على أن أهم ما نحذر منه هو ما تنطوي عليه هذه الجماعات من حقد على المجتمع، وتربص به، وعمل على الإيقاع به بشتى الطرق سواء بالتخريب المباشر أم بالتعويق والتعطيل والتشويه وقلب الحقائق، ولهم من أساليب المكر ما لا يمكن أن يفكر فيه سوى جماعات الهدم ومنزوعي الوطنية، لدرجة أن بعضهم أيًّا كانت مهنته وكان أمام

منتج وطني وآخر غير وطني فإنه يفضل غير الوطني لتهوي صروح الصناعة الوطنية، من باب أن هذا يؤدي إلى إضعاف الدولة وسقوطها، وهو ما قد يسهم من منظورهم في إفساح الطريق لهم إلى سدة الحكم، خابوا وخسروا ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[1].

كما أننا نحذر من حملات التشويه وقلب الحقائق من خلال المواقع الإلكترونية وبعض الوسائل الإعلامية التي تتسلل عبرها هذه العناصر محترفة الكذب والتدليس، وعلينا أن نتثبت ونتبين حقائق الأخبار حتى لا نقع في شراك ما تريده هذه الجماعات من فوضى، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[2].

٦- إننا في حاجة ملحة إلى إعادة قراءة تراثنا الفكري قراءة دقيقة واعية تفرق بين الثابت والمتغير، بين ما ناسب عصره وزمانه ومكانه من اجتهادات الفقهاء، وما يتطلبه عصرنا ومستجداته من قراءة جديدة

(١) [سورة الأنفال، الآية ٣١].

(٢) [سورة الحجرات، الآية ٦].

للنصـوص يقوم بها أهل العلم والاختصـاص لحل إشكاليات الحاضـر وبخاصة فيما يتصل بأحكام الحرب والسِّلم والحكم، ولا سيما في الرسائل العلمية والبحثية الجامعية المتخصصة حتى تكون الجامعة بحق في خدمة المجتمع، وكذلك من خلال المجامع والهيئات والمؤسسات العلمية والفقهية المتخصصة.

***

الخـاتمـة

وختامًا، وبعد رحلة فكرية طويلة مع فلسفة الحرب والسِّلم والحكم، لخصتها في هذه الصفحات تجلية للحق، وتصويبًا للمفاهيم الخاطئة، آثرت فيها الإيجاز تيسيرًا على القارئ، ومراعاة لوتيرة العصر المتسارعة في كل شيء، يسرني أن أسجل بين يدي القارئ الكريم بعض الإضاءات التي تضمنها البحث، وهي:

أن كثيرًا من أوجه الخلل التي تعتري المجتمعات والدول تأتي نتيجة سوء الفهم لفلسفة الحرب، أو فلسفة السِّلم، أو فلسفة الحكم، حتى إن أكثر الجماعات الضالة والمنحرفة عن جادة الصواب والعناصر التي تجتذبها جماعات التطرف إنما تجتذبها وتجندها في الغالب الأعم من خلال الخلط بين أحكام الحرب وأحكام السِّلم، وإسقاط أحكام الحرب على أحوال السِّلم، ورمي المجتمعات بالتقصير في حق دينها، ومن ثم وصفها بالجاهلية تمهيدًا لتكفيرها، ثم

الانتقال من التكفير إلى التفجير، أو تعمل على ذلك من خلال نشر الفهم الخاطئ لنظام الحكم وحصره في قضية الخلافة ومحاولة فرضها بمنظور هذه الجماعات المتطرفة على المجتمعات والدول فرضًا، والإصرار على إسقاط الواقع المعاصر في قوالب جامدة لم يضعها ولم يفرضها الإسلام، إنما صنعتها الرؤى المتطرفة لهذه الجماعات.

أن الحرب في الإسلام إنما هي حرب دفاعية شُرعت لردِّ الظلم والعدوان، وهي محصورة في ردِّ الاعتداء ودفع الظلم، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، ويقول ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

أن من أهم أخلاق الفرسان التي أصَّلها الإسلام في فلسفة القتال أنه لا قتل للمدنيين أو لغير المقاتلين، ولا هدم للبنيان، ولا تخريب للعمران، فالإسلام دين بناء لا هدم.

أننا إذا فرض علينا القتال فإننا لا يمكن أن نعطي الدنية في ديننا ولا أن نتخاذل في الدفاع عن أوطاننا،

إنـما نفتديهـا بأنفسـنا وشـعارنا في ذلـك: والله إنهـا لإحـدى الحُسـنيين إمـا النـصر وإمـا الشـهادة.

أن البشرية لو بذلت في سبيل السلام والبناء، والنماء والتنمية، وعلاج المرضى، ورعاية الضعفاء والمحتاجين والمهمشين في العالم معشار ما تنفقه على الحروب والتسليح، وتخلى الأنانيون عن نفعيتهم وأنانيتهم، لانصلح حال البشـرية جمعـاء، ولتغـير وجه البسيطـة، ولعاش العالم كله في سلام وأمان، فإن لم يكن ذلك فما لا يدرك كله لا يترك كله، ويجب على كل عاقل رشيد مؤمن بالإنسانية محب للسلام أن يكون في جانب السلام والبناء والتعمير لا جانب الاحتراب والتدمير.

تعد فلسفة السِّلم هي القضية الراسخة في الفكر الإسلامي، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

ووفق مفهومي الموافقة والمخالفة في فهم هذه الآية فإن من يسير في طريق السِّلم الإنساني متبعٌ لما أمر الله به عباده المؤمنين، ومن يسلك مسالك الفرقـة والشقـاق، والتكفير

والتفجير، والخوض في الدمـاء، والولوج فيها بغير حق فسادًا أو إفسادًا، متبعٌ لخطوات الشيطان الذي هو لنا جميعًا عدوٌّ مبين.

أن السلام الحقيقي يقتضي أن يكون الإنسان في سلام مع نفسه، مع أصدقائه، مع جيرانه، مع النبات والحيوان والجماد، مع الكون كله، ألم يقل النبي ﷺ: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ).

أن فلسفة الحكم في الإسلام قائمة على مراعاة مصالح الناس، فكل ما يحقـق الأمن والأمان والاستقـرار، ويعمل على عمارة الكـون وسعادة البشـر يتفق ومقاصد الأديـان، وكل ما يؤدي إلى الظلم أو الفسـاد أو الهدم، أو التخريب لا علاقة له بالأديان، بل إنه متناقض كل التناقض مع صحيح الأديان ومقاصدها السامية.

أن الإسلام لم يضع قالبا جامدًا صامتًا محددًا لنظام الحكم لا يمكن الخروج عنه، وإنما وضع أسسًا ومعاييرَ متى تحققت كان الحكم رشيدًا يقـرّه الإسلام، ومتى اختلّت أصاب الحكم من الخلل والاضطراب بمقدار اختلالها.

ولعل العنوان الأهم والأبرز لنظام أي حكم رشيد هو مدى تحقيقه لمصالح البلاد والعباد، وعلى أقل تقدير مدى عمله لذلك وسعيه إليه، فأي حكم يسعى إلى تحقيق مصالح البلاد والعباد في ضوء معاني العدل والمساواة والحرية المنضبطة بعيدًا عن الفوضى والمحسوبية وتقديم الولاء على الكفاءة فهو حكم رشيد معتبر.

أنه لا تعارض بين النقل والعقل، ونعني بذلك أنه لا تعارض بين النص الثابت الصريح والعقل المفكر الرشيد، فالإسلام دين الفطرة، وحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله ما لم يحل ذلك حرامًا أو يحرم حلالًا.

أنه لا تعارض بين الإسلام والعلم، بل على العكس من ذلك؛ فإن الإسلام دين العلم، وأمته أمة «اقرأ»، وإنه ليدعونا إلى الأخذ بأقصى أسباب العلم، ويحثنا عليه، ويأمرنا به، وينهانا عن التخبط في ظلمات الجهل والتخلف، وقد جعل نبينا ﷺ فداء أسرى بدر الذين يجيدون القراءة والكتابة أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة، في إشارة واضحة إلى الاهتمام البالغ بالعلم وإعلاء شأنه وقيمته.

أنه لا تعارض بين الدين والدولة، فالدولة الرشيدة هي صمام أمان للتدين الرشيد، والعلاقة بين الدين والدولة ليست علاقة عداء ولن تكون، إن تدينا رشيدًا صحيحًا واعيًا وسطيًّا يسهم وبقوة في بناء واستقرار دولة عصرية ديمقراطية حديثة تقوم على أسس وطنية راسخة وكاملة، وإن دولة رشيدة لا يمكن أن تصطدم بالفطرة الإنسانية التي تبحث عن الإيمان الرشيد الصحيح.

على أننا ينبغي أن نفرّق وبوضوح شديد بين التدين والتطرف، فالتدين الرشيد يدفع صاحبه إلى التسامح، إلى الرحمة، إلى الصدق، إلى مكارم الأخلاق، إلى التعايش السِّلمي مع الذات والآخر، وهو ما ندعمه جميعًا، أما التطرف والإرهاب الذي يدعو إلى الفساد والإفساد، والتخريب والدمار، والهدم واستباحة الدماء والأموال، فهو الداء العضال الذي يجب أن نقاومه جميعًا، وأن نقف له بالمرصاد، وأن نعمل بكل ما أوتينا من قوة للقضاء عليه حتى نجتثه من جذوره.

أن فلسفة الإسلام الحقيقية تقوم على العدل فإن الله ﷻ ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ولا ينصر الدولة

الظالمة ولو كانت مؤمنة، وقد قالوا: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام.

أن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية وترسيخ دعائمها مطلب شـرعي ووطني، وأن كل من يعمـل على تقـويض بنيان الدولة أو تعطيل مسيرتها، أو تدمير بناها التحتية، أو ترويع الآمنين بها، إنما هو مجرم في حق دينه ووطنه معًا.

أن السلطة قد صارت في منظور الجماعات المتطرفة وأيديولوجياتها غاية لا وسيلة، ويتمحور فكر هذه الجماعات حول معنى واحد ربما لا ثاني له إما أن تحكم وإما أن تخرب لتسقط أنظمة الحكم، وفي سبيل ذلك كل شيء لديها مباح، فكل ما يمكن أن يسهم في تحقيق هذه الغاية لهم هو في أيدلوجياتهم سبيل من سُبل التمكين التي يجب الأخذ بها، حتى لو أدى ذلك إلى سفك الدماء، وترويع الآمنين، أو إسقـاط الدول، أو تفكيكها، أو تفتيتهـا، أو تدميرهـا، أو تعـريض وجودها من أساسه للخطر والمخاطر.

أننا في حاجة ملحة إلى إعادة قراءة تراثنا الفكري قراءة دقيقة واعية تفرق بين الثابت والمتغير، بين ما ناسب عصره

وزمانه ومكانه من اجتهادات الفقهاء وما يتطلبه عصرنا ومستجداته من قراءة جديدة للنصوص يقوم بها أهل العلم والاختصاص لحل إشكاليات الحاضر وبخاصة فيما يتصل بأحكام الحرب والسِّلم والحكم، ولا سيما في الرسائل العلمية والبحثية الجامعية المتخصصة حتى تكون الجامعة بحق في خدمة المجتمع، وكذلك من خلال المجامع والهيئات والمؤسسات العلمية والفقهية المتخصصة.

أننا في حاجة إلى شراكة حقيقية لا إقصاء فيها، تجمع بين العلماء والفقهاء والمفكرين والمثقفين وقادة الفكر والرأي، لنعمل معًا على تجديد وتطوير وتصويب خطابنا الفكري والثقافي والديني والعلمي، في إطار من التعاون لا التقابل ولا التناقض، وتركيز كل منا فيما يتقنه ويحسنه، قصد خدمة ديننا ووطننا وأمتنا، مجتمعين على كلمة سواء.

أننا يجب أن نفرق بين إسلامية المنهج الذي يجب ألا يتعارض أو يتناقض مع المقاصد الكلية للشرع الحنيف التي تدعو في جملتها إلى العدل والمساواة والكرامة الإنسانية واحترام آدمية الإنسان، وبين المتاجرة بهذه المبادئ واحتكار فهمها أو تطبيقها، ومحاولات تسويق بعض الجماعات

الإرهابية والمتطرفة أنفسها على أنها حامية حمى الدين، واختزال هذه الحماية في أنفسهم، بحيث لو حكم غيرهم بكل معاني العدل والنزاهة والشفافية لكان حكمه غير إسلامي وغير مقبول، لا لشيء إلا لأنه لا ينتمي إليهم، ولا يطبق أيديولوجياتهم ومخططاتهم، ولا يحقق مصالحهم الخاصة، أما إذا آل الحكم إلى أحد كوادرهم الحزبية أو الأيديولوجية، فهو الحاكم المنزه الذي لا يخطئ والذي يجب تبرير أخطائه وقلب سيئاته حسنات حتى لو كان في أعلى درجات الدِّكتاتورية والإقصاء على نحو ما كان من رئيس الجماعة المعزول الذي أصدر إعلان الجماعة غير الدستوري المكبل المكمم الذي تضمن: أن جميع قرارات الرئيس نهائية وباتة، ومتجاوزة لكل دوائر القضاء، وغير قابلة لأي نقض أو طعن، مما يجعله متطابقًا مع ما كان من فرعون مع قومه حين قال لهم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[1].

وأخيرًا، فإنني قد بذلت وُسْعي واجتهدت، فإن كنت قد وفقت وهديت إلى سبيل الرشاد فهذا

(١) [سورة غافر، الآية ٢٩].

فضـل الله ومنتـه، ولـه الحمـد في الأولى والآخـرة، وإن كانت الأخـرى فالكمـال لله وحـده، والعصمة فقـط لأنبيائـه ورسـله عليهم السلام، وحسـبي أني حاولـت واجتهـدت، وسـلطت الضـوء عـلى قضيـة في غايـة الأهميـة والحيويـة يمكـن أن تسـهم في بيـان وجـه الحـق فيهـا، وتنقيتهـا ممـا علـق بهـا مـن شـوائب أو مفاهيـم خاطئـة ألصقـت بهـا، أو أقحمـت عليهـا جهـلًا أو عمـدًا، في علاج كثـير من أوجـه الخلـل، ودحـض مسـالك الجـدل التـي يتشـدق بهـا مُنَظِّـرو الجماعـات المنحرفـة والمتطرفة.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

***

فهرس الموضوعات

مقــدمـة	٥
المبحث الأول: فلسفــة الحرب	٩
المبحث الثاني: فلسفــة السِّلم	٤١
المبحث الثالث: فلسفــة الحكـم	٥٩
الخاتمـة	٨٣

* * *